هل تظل النفس حية بعد مفارقة الجسد؟

إن بقا النفس بعد انفصال الجسد قضية من القضايا الهامة التى شغلت عقول المفكرين والفلاسفة منذ قديم، وستظل تشغلها إلى أن يشاء رب العالمين. وهى قضية ثبتت صحتها وأصبحت فى غير حاجة إلى أى نقض أو تفنيد، بالرغم من كثرة ما قاله الماديون من أقوال إن دلّت على شىء فإنما تدلّ على جهل ومكابرة.

فالنفس البشرية - لبساطتها وروحنيتها وعدم قابليتها للفساد يمكنها أن توجد بغير أن تخشى مبدأ موت يكون فيها ذاتيا، وفى عبارة أخرى، إن النفس قادرة، بطبيعتها، على أن تظل موجودة حية بعد انفصالها من الجسد.

ثم إن النفس ممتازة، بطبعها، عن الجسد، فلها حياة خاصة بها، وهى قائمة بعقلها الذى يختص بالأمور الروحية وغير المادية، وبإرادتها التى تتعلق بالخير غير المنظور. ولكائن الذى يتصف بهذه

القوى الشريفة يمكنه أن يوجد حتى بعد انفصاله من الجسد وأن يستمر فى القيام بأعماله أيضًا دون أن يكون هناك ما يمنعه من ذلك؛ لأن موضوع عقلها هو الأمور الروحية وغير المادية.

وبهذا المعنى يقول الرئيس ابن سينا:

«اعلم أن الجوهر الذى هو الإنسان فى الحقيقة لا يفنى بعد الموت، ولا يبلى بعد المفارقة عن البدن، بل هو باق لبقاء خالقه تعالى، وذلك لأن جوهره أقوى من جوهر البدن، لأنه محرك هذا البدن ومدبّره ومتصرّف فيه، والبدن منفصل عنه تابع له، فإذن لم يضر مفارقته عن الأبدان وجوده، إذ البدن موجود باق بعد الموت، فإذن لا يضر وجود النفس، وبقاؤه كان أولى. ولأن النفس من مقولة الجوهر، ومقارنته مع البدن من مقولة المضاف، والإضافة أضعف الأعراض لأنه لا يتم وجودها بموضوعها، بل يحتاج إلى شىء آخر وهو المضاف إليه، فكيف يبطل الجوهر القائم بنفسه ببطلان أضعف الأعراض المحتاج إليه؟. ومثاله أن من يكون مالكا لشىء متصرفًا فيه، فإذا بطل ذلك الشىء لم يبطل المالك ببطلانه؛ ولهذا فإن الإنسان إذا نام بطلت عنه الحواس والإدراكات وصار ملقى كالميت، فالبدن النائم فى حالة شبيهة بحال الموتى، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «النوم أخو الموت». ثم إن الإنسان فى نومه يرى الأشياء ويسمعها، بل يدرك الغيب فى المنامات الصادقة بحيث

لا يتيسر له فى اليقظة. فذلك برهان قاطع على أن جوهر النفس غير محتاج إلى هذا البدن، بل هو يضعف بمقارنة البدن ويتقوى بتعطله، فإذا مات البدن وخرب تخلص جوهر النفس عن جنس البدن. فإذا كان كاملاً بالعلم والحكمة والعمل لصالح انجذب إلى الأنوار الإلهية، وأنوار الملائكة، والملأ الأعلى، انجذاب إبرة إلى جبل عظيم من المغناطيس، وفاضت عليه السكينة وحقت له الطمأنينة، فنودى من الملأ الأعلى: ﴿يأيتها النفس المطمئنة، ارجعى إلى ربك راضية مرضية، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى﴾[1].

وللسيد البطليوسى[2] رأى له قيمته فى هذا الموضوع أفرد له فصلاً خاصا فى «كتاب الحدائق فى المطالب العالية الفلسفية العويصة» وهو من الكتب النادرة، قال فيه[3]:

«النفوس ثلاثة: نباتية؛ وحيوانية؛ وناطقة. فأما النفس النباتية والنفس الحيوانية فلا نعلم خلافًا فى عدمها بعدم الجسم وإنما وقع الخلاف فى النفس الناطقة وهى العاقلة المميزة. فزعم قوم أنها تعدم

---

(١) عن «رسالة فى معرفة النفس الناطقة وأحوالها» الفصل الثانى لابن سينا.

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البَطَلْيوسى، وكان عالمًا باللغة والأدب متبحرًا فيهما، فقيها، وكان له تحقق فى الفلسفة والعلوم القديمة والحديثة. وله مؤلفات عديدة. ولد فى بطليوس سنة ٤٤٤ هـ. وتوفى ببلنسية فى رجب سنة ٥٢١ هـ. وكلتاهما من بلاد الأندلس «قلائد العقيان ووفيات الأعيان».

(٣) ص ٦١ - ٦٧.

عند فراقها الجسم كعدم النباتية والحيوانية. وقال قوم إنها باقية حيّة لا عدم لها، وهو مذهب سقراط وأرسطو وأفلاطون وسائر زعماء الفلاسفة وعلى ذلك تدل الشرائع كلها. وأنا أذكر جملة من البراهين الفلسفية على بقائها لأن الشرعية لا تليق بهذا الموضع. واستدل البطليسوى على بقاء النفس الناطقة بثمانية براهين نكتفى ببعضها فيما يلى :

البرهان الأوّل : ميل الإنسان إلى الشهوات الطبيعية، والأهواء واللذات الجسدية تمنعه من تصور الحقائق وقبول المعارف وتكسب ذهنه بلادة. وإقلاله من ذلك يفيد ذهنه حدّة ويعينه على قبول المعارف وتصور الحقائق. فدلّ ذلك على إذابة الطبيعة للنفس الناطقة وأنها كلما انسلخت منها كانت أكثر تميزًا، وأوضح معرفة، فينتج من هذه المقدمات أن تكون عند الموت أصحّ تميزًا، وأبصر للحقائق لانسلاخها من جميع المادة ولا يكون التميز والتصور إلاّ لحىّ فالنفس إذن حية بعد الجسم. وقد وافق على هذا البرهان الفلسفى من نصوص شرعنا قول الله تعالى : ﴿لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾[1]. وقول سيدنا علىّ كرم الله وجهه : «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا».

البرهان الثانى : نفوسنا الناطقة إنما تفتقر إلى الحواس الجسدية

(١) سورة ق آية ٢٢.

مادامت عارية من الصور لعقلية فإذا حصلت فيها صورة من الصور العقلية لم تحتج إلى استعمال الحاسة التى كانت تتوصل بها إليها، فدلّ ذلك على أن للنفس الناطقة استقلالاً بذاتها تستغنى به عن الجسم وأن أعضاء الجسم إنما هى آلات لها تلتقط بها معارفها فأنتج من ذلك أن النفس الناطقة إذ تجوهرت وحصل لها العقل المستفاد لم تحتج إلى التعلق بالجسم.

البرهان الثالث: نجد الإنسان بالمشاهدة يبدأ طفلاً لا يعلم شيئًا ثم لا يزال كلما نشأ يترقى فى المعارف وتكثر المعقولات فى نفسه حتى يصير فيلسوفًا حكيمًا فلا يخلو ما يستفيده من التمييز والمعرفة أن يكون من قبل جسمه فقط أو من قبل نفسه فقط أو من قبلهما معًا. فإن كان من قبل جسمه فيجب أن يكون الإنسان كلما ضخم جسمه وكثرت مادته كان أشدّ تهيؤا لقبول المعارف، وكلما ضؤل وقلّت مادته كان أبعد عن قبول المعارف. ونحن نرى الأمر بالعكس من ذلك لأنّا نرى من به السلّ والذبول ينقص حسمه كل يوم وذهنه باق على كماله إلى أن تفارقه النفس، فيبطل بهذا الدليل أن يكون ذلك من قبل جسمه، بنحو هذا الدليل يبطل أن يكون ذلك من قبل نفسه وجسمه، معًا فإذن ما يستفيده الإنسان من التمييز والمعارف إنما هو من قبل النفس فقط، ولاحظ فى ذلك للجسم أكثر من أنه آلة لها بمنزلة الآلات للصناعة، ولا يصحّ وجود التمييز والمعارف من موات وإنما يصحّ وجودها من حىّ، فالنفس إذن حية بالطبع لأن فى طبعها

قبول العلوم والمعارف، والجسم موات بالطبع إذ ليس فى طبعه قبول شيء من ذلك، فبان بالبرهان أن الإنسان مركب من جوهرين:

أحدهما: حىّ بالطبع وهو النفس.

والثانى: موات بالطبع وهو الجسم. وأنهما لما افترقا زال ما عرض لكل واحد من قبل صاحبه[1]. فالنفس إذن حيّة بالطبع ميّتة بالعرض، والجسم ميت بالطبع حىّ بالعرض، فإذا انفصل كل واحد منهما من صاحبه خلص للجسم الموت المحض الذى هو طبعه، وفارقته الحياة العرضية التى كان استفادها من النفس، وخلصت للنفس الحياة المحضة التى هى طبعها، وفارقها الموت العرضى الذى كان عرض لها من قبل استغراقها فى الجسم.

البرهان الرابع: كل شيء مركب من بسائط فإنه ينحل إلى بسائطه، والإنسان مركب من شيئين: روحانى، وجسمانى. ونحن نرى أن الإنسان إذا مات لحق جسمه بجسمانى مثله، فكذلك روحانيته يجب أن تلحق بروحانى مثلها. وقد صحّ بما قدّمناه من البراهين السالفة أن ذلك الروحانى هو الذى يفيد جسمه الحياة وأنه حىّ بالفعل، فهو إذن حىّ بعد مفارقة الجسد لا يعدم الحياة.

---

(١) يعنى حياة عرضية للجسم بإشراق النفس عليه، وموتًا عرضيًا للنفس بانحباسها فى الجسم.

البرهان الخامس: معنى احياة الجسدية عندنا هو مقارنة النفس الجسم واستعمالها إياه. ومعنى الموت مفارقة النفس إياه وتركها استعماله. وقال من زعم أن النفس هالكة بهلاك الجسم: «معنى الحياة أن تكون النفس ذات حسّ، ومعنى الموت أن تعدم الحسّ» فنسألهم عن الحسّ الموجود للنفس طول مقارنتها للجسد: «هل هو ذاتي لها أو عرضي؟» فإن كان ذاتيًا لها بطل أن تعدم الحس بعد مفارقتها للجسد، وإن كان عرضيًا فلا يخلو أن يكون استفادته من الجسم أو من جوهر آخر مصاحب لها. فإن كان الجسم هو الذي يفيدها الحسّ وجب أن لا يعدم اجسم الحسّ إذا فارقته النفس؛ وهذا ضدّ ما نشاهده من حالها وحال جسمها. فإن كانت النفس إنما ستفيد الحسّ من جوهر آخر روحاني متصل بها وجب أن نسألهم عن ذلك الجوهر الآخر هل هو حسّاس بذاته أو بجوهر آخر أيضًا ويستمر ذلك إلى ما لا نهاية له، وما لانهاية له بالفعل محال، فثبت أن النفس حساسة بذاتها وجوهرها. وما كان حساسًا بذاته وجوهره بطل أن يعدم الحياة. فالنفس إذن حيّة بعد فراق الجسم».

* * *

إن الباحث عن حقيقة بقاء النفس بعد موت البدن إذا أراد أن يعرف المزيد عنها فإنه يستطيع أن يفيد فائدة كبيرة إذا رجع إلى ما كتبه العلماء والحكماء والمتصوفون في هذا الموضوع وهم كثيرون.

منهم العلاّمة ابن العبرى[1]. فمن رأيه أن النفس غير ميتة ولا يتطرق الفناء إلى جوهرها. ويعلل ذلك بأن النفس بسيطة والبسيط لا ينحلّ إلى غيره؛ لأن الذى ينحل فيبطل ذاته يلزم أن يكون فيه شيء يقبل ذلك الانحلال. وليس فى ذات النفس أمران مختلفان يطلب أحدهما غير ما يطلبه صاحبه. بل من شأن النفس ألاّ تفنى وإنما هى باقية ببقاء علّتها.

ولا ينتج مما قيل فى النفس أنها لا تموت وأنها ليست بجسم وما شاكله كونُ ذلك نقصًا فى حقها لأن هذه الصفات سلبية باللفظ فقط وهى فى الحقيقة تدلّ على صفات مُثبتَة. فإن قولنا مثلاً «إن النفس لا تموت» هو إثبات الحياة فيها. وقولنا «إنها غير جسم» هو إثبات قوامها دون الجسم الذى هو خسيس بالنسبة إلى شرف النفس[2].

---

(١) هو العلامة أبو الفرج الملطى جمال الدين غريغوريوس بن أهْرون الطبيب المعروف بابن العبرى (١٢٢٦ - ١٢٨٦)م. كان كثير الاطلاع وحصّل علومًا شتى وأتقنها وانفرد بالطبّ فى زمانه حتى شُدَّت إليه الرحال بأرض المغرب. وأقيم أسقفًا على مدينة مَلَطْية، وأخذ عنه كثير من فضلاء المسلمين. ومن مؤلفاته: كتاب تاريخ مختصر الدول وهو من أشهر التواريخ. وشرح قانون ابن سينا وبقراط وديوسقوريس، وكتاب دفع الهم، وديوان شعر فى الإلهيات، وغيرها.

(٢) الفصل العشرون من كتاب «مقالة مختصرة فى النفس البشرية» لابن العبرى، تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعى، طبع بيروت ١٩١١.

ومن رأى ابن العبرى كذلك أن النفس إذا فارقت الجسم لم يصدق عليها الفساد والهلاك «فإن لنفس بسيطة وإنها ذات واحدة وطبعها الحياة، وهى قائمة بذاتها غنية عن موضع توجد فيه. وكل من كان بهذه الصفة فهو باق. فالنفس إذن باقية بعد الفراق».

ويقول أيضًا: «لو صدق على النفس الفناء لكان ذلك وهى فى عذاب الجسد أجدر وأحرى لأن المبتلى بأنواع الضيق أسرع إلى الهلاك منه عند الفكاك. ولما لم يصدق عليها الفناء وهى تقاسى مرارة دواعى البدن امتنع عليها ذلك بعد فراق الجسد»[1].

ويزيدنا ابن العبرى علمًا ومعرفة بأن النفس إذا فارقت الجسد لا تفقد صفاتها المختصة لذاتها فيقول: «إن صفات النفس المختصة بذاتها باقية ببقاء النفس، دائمة بدوامها بعد مفارقتها للجسد. وهذا ينتج عن أن العقل والرأى والذهن والفكر والذكر والحى والبسيط هى قوى طبيعية للنفس. والطبيعى دائم بدوام ما هو خاص به فإذن تدوم أيضًا هذه القوى لدوام النفس[2]».

ومن رأى ابن العبرى كذلك أن تأثير النفس - فعلها وحركتها - باق بعد فراق الجسد. فهو يقول: «إن الفعل والحركة ذاتيان للنفس راكزان فى كيانها فلا يمكن إذن أن يفارقاها البتّة. ولكن بعد

---

(١) نفس المرجع: الفصل الخامس والأربعون.

(٢) نفس المرجع الفصل ٤٦.

فراق الجسد سينقطع عن النفس سبيلها إلى الفعل والتأثير والزيادة فى الخصائل والنقص من الرذائل لأن الآلة التى كانت تفعل بها قد بطلت وتعطلت. والصانع لا يتمكن من تتميم فعله إلاّ بآلته. وذلك على مثال الكاتب الماهر إذا عُدمت آلته تعطلت صناعته ولم تذهب معرفة الكاتب من نفسه. فكذلك النفس وصفاتها»[1].

ثم يقول ابن العبرى إن النفس إذا فارقت جسدها يزيد فهمها وذكرها. وإنها تعرف ذاتها وتعرف أيضًا أنها مخلوقة ويدلل على ذلك بأن «النفس لما كانت مُمَنوَّة بعلائق الجسد ودواعيه وصفاته كان لها قدرة على الفهم والذكر. فعند انسلاخها عنه يلزم أن تزداد هذه القدرة عما كانت عليه أولاً. ولولا ذلك لكان الفعل مع العائق كمثل الفعل دونه وذلك محال. فظهر أن النفس عند عدم العائق تدرك وتفهم وتتذاكر أكثر من إدراكها وفهمها عند وجود العلائق». ويقول: «إن صفات النفس باقية فيها بعد فراق الجسد. ومن صفات النفس العلم فلابدّ إذن من القول إن النفس تعرف أن لها خالقًا، وأنها مخلوقة، وأنها اتحدت بالجسد وانتقلت عنه كما أنها تعرف أجزاء هذا الجسد المتبددة فى العناصر وتعرف أنها ستتحد به ثانية، وتعرف الملائكة والجن عند خروجها من الجسد. وتعرف

---

(١) نفس المرجع: الفصل ٤٧.

النفوس الشبيهة بها والمكان الروحانى المعدّ لها. وتعرف وتشعر بالقرابين والصدقات التى تقرّب منها»[1].

* * *

وممن تكلموا فى هذا الموضوع أيضًا «السهروردى»[2]، فهو يقول :

---

(١) نفس المرجع : الفصول ٤٨ و٤٩ و٥٠.

(٢) هو أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أمْيرك الملقب بشهاب الدين السهروردى المقتول بحلب. ولد ببلدة سهرورد من أعمال زنجيد من عراق العجم بين سنة ٥٤٥ هـ. و٥٥٠ هـ. قرأ الحكمة وأصول الفقه على الشيخ مجد الدين الجيلى بمدينة مراغة إلى أن برع فيهما ومجد الدين هذا كان شيخ فخر الدين الرازى وعليه تخرج وبصحبته انتفع. وكان السهروردى أوحد أهل زمانه فى علوم الحقيقة والفلسفة، بارعًا فى أصول الفقه، مفرط الذكاء، وكان علمه أكبر من عقله.

يقول ابن أبى أصيبعه : «لما بلغ الشهاب لُحْ صلاح الدين أمر بخنقه وصلبه وليس جهة إلى الإفراج عنه فختار أن يترك فى مكان منفرد ويمنع من الطعام والشراب إلى أن يلقى الله تعالى ففعل به ذلك وكان فى أواخر سنة ٥٨٦ هـ. بقلعة حلب وكان عمره نحو ست وثلاثين سنة» والروايات التى تذكر بهذا الصدد كثيرة. فهناك من يقول إن الملك الظاهر هو الذى قام بقتله بناءً على أمر والده. ويقال إنه ندم على فعلته بعد ذلك وقبض على الذين وشوا به وسجنوا وأخذ منهم أموالاً كثيرة. «وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٣ ص ٢٥٧.

وشذرات الذهب لابن العماد ج ٤ ص ٢٩٠.

وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ١٦٧. وما بعدها».

« . . والنفس باقية بعد البدن، ومن أقرب ما يحتجّ به : أن النفس جوهر غير منطبع، مباين عن البدن. وعلّته الفياضة باقية، وليس له مع البدن إلا علاقة شوقية، والعلاقة إضافية، ومن أضعف الأعراض - الإضافة، فإذا بطلَ البدنُ تنقطع تلك العلاقة. فلو بطلت النفسُ ببطلان الإضافة لكان الجوهرُ يتقوّم وجودُه بأضعف الأعراض التى هى الإضافة، وهو محال.

« ثم النفس إذا كان المعطى لوجودها باقيًا، وليس لها مكان ومحل ليكون لها مضادٌ ومزاحم يبطلها بضرب من تضاد. والجوهر المباين[1] الذى ليس بعلّة فاعلية مطلقة للشيء تفيض وجوده - لا يلزم من بطلانه بطلان جوهر آخر[2] فالنفس باقية.

« ومما يحتج به أن كل شيء يبطل فلا بدّ وأن يكون له قوّة بطلان، ولا يكون قوّة بطلان الشيء البسيط فيه، فإنه بالفعل من جهة ذاته، ولا يُتصور أن يكون شيء واحد هو فعلاً فى ذاته وهو القوّة. فإن قوّة بطلانه يجب أن يكون فى قابل له فيه قوّة وجوده وقوّة عَدَمه، كما للصور والأعراض فى حوملها، والنفس لما كانت مجردة لا قابل لها، وهى وحدانية، وبالفعل من قبل ذاتها فلا يتصور أن يكون لها قوّة بطلان أصلاً، لا فى ذاتها ولا فى غيرها،

---

(١) أى المعايى للنفس.

(٢) أى بطلان النفس.

فلا تنعدم أصلاً، وهذا بعينه يتوجّهُ في كل بسيط لا قابل له، كالهيولى والعقل.

« وههنا شك وهو ما قيل: أليست المفارقات ممكنة الوجود؟ وكل ممكن الوجود ممكن العدم. فلها قوّة وجود وعدم. وقد قلتم إن البسيط الذى لا قابل له ليس له قوّة وجود وعدم. وأجاب بعض المتأخرين فقال: إن العقول الفعّالة إنما إمكاناتها بالقياس إلى وجوداتها، بمعنى أنه متى عدمت فلعلّة عدمت هى بخلاف ما نحن فيه، فإن ما نحن فيه هو ما يمكن أن ينعدم مع بقاء علّته، وإنما يكون ذلك بفساد يعرض فى جوهره. »[1].

* * *

وللإمام الغزالى رأيه هو الآخر، وهو حجّة يعتمد عليه فى هذا الموضوع الذى برهن عليه ببراهين نقلية وعقلية فيقول:

« .. أما المنقول فيقول تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتًا بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾[2]. ومعلوم أن من كان حيًّا مرزوقًا فرحًا مستبشرًا به لا يكون ميتًا معدومًا. وكذلك قوله تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل فى

(١) عن كتاب « السهروردى » للأستاذ سامى الكيالى، سلسلة نوابغ الفكر العربى، دار المعارف ص ٣، و٧٤.

(٢) سورة آل عمران الآيتان ١٦٩، ١٧٠: ٣

سبيل الله أمواتٌ بل أحياءٌ ﴾[1]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى رياض الجنة». وقد ترسخ فى جميع عقائد أهل الإسلام هذا. فإن رسول المغفرة والرحمة لمن يكون باقيا لا لمن يكون فانيا. وكذلك أهل الصدقة فاعتقادهم أنها تصل إليه. وكذلك للدامات فكل ذلك دليل على أنها باقية.

«أما البرهان العقلى فلأن كل شيء يفسد بفساد شيء آخر فهو متعلق به نوعًا من التعلق. وكل متعلق بشيء آخر نوعًا من التعلق، فإما أن يكون تعلقه به تعلق المكافئ فى الوجود أو تعلق المتأخر عنه فى الوجود أو تعلق المتقدم عليه فى الوجود الذى هو قبله فى الذات لا فى الزمان.. فإن كان تعلق النفس بالبدن تعلق المكافئ فى الوجود وذلك أمر ذاتى له.. لا عرضى فكل واحد منهما مضاف الذات إلى صاحبه فليس لا النفس ولا البدن بجوهر ولكنهما جوهران.

«وإن كان ذلك أمرًا عرضيًا لا ذاتيًا فإن فسد أحدهما بطل العارض الآخر من الإضافة ولم يفسد الذات بفساده. وإن كان تعلقه به تعلق المتأخر عنه فى الوجود فالبدن علّة للنفس فى الوجود، والعلل أربع: فإما أن يكون البدن علة فعلية للنفس معطية لها

---

(١) سورة البقرة آية ١٥٤ . ٢.

الوجود؛ إما أن يكون علّة قابلية لها سبيل التركيب كالعناصر للأبدان، أو بسبيل البساطة كالنحاس للصنم، وإما أن يكون علة صورية، وإما أن يكون علة كمالية، ويحتمل أن يكون علة فاعلية. فإن الجسم بما هو جسم لا يفعل شيئًا ولم يفعل بقواه ولو كان بذاته يفعل لا بقواه لكان كل جسم يفعل ذلك الفعل..»[1].

* * *

وللفيلسوف الكبير نصير الدين الطوسي[2] رسالة عن «بقاء النفس بعد فناء الجسد»، كان قد وضعها لتلميذه مؤيد الدين الفلكي المهندس الذي تعاون معه في إنشاء مرصد مراغة. وهي

---

(١) انظر كتاب «معارج القدس في مدارج معرفة النفس» للغزالي ص ٩٥ - ١٠١.

(٢) نصير الدين محمد بن محمد الطوسي الوزير (١٢٠١ - ١٢٧٢ م.) (٥٩٨ - ٦٧٣ هـ.) فيلسوف فارسي له شأن كبير في العلوم الفلسفية والرياضيات والفلك والأرصاد. له فيها مصنفات هامة. وكان تلاميذه كالقطب الشيرازي والنظام النيسابوري والعلامة الحلي يلقبونه «أستاذ البشر». وقد أحلّه الإفرنج محلًا ساميا لا يدانيه فيه أي فيلسوف في الشرق حتى إنهم سموا باسمه جبلًا اكتشفوه في كرة القمر تذكارًا لذكرى خدماته العلمية. أنشأ مرصدًا عظيمًا بمراغة، وكوّن خزانة ضخمة من الكتب المنهوبة من بغداد والشام والجزيرة في عصر التتر. وكانت له منزلة كبرى في تاريخ الحياة العقلية الإسلامية عند الفرس، ومن مصنفاته في الفلسفة «تجريد العقائد» ويعرف باسم «تجريد الكلام».

مخطوطة نفيسة يرجع تاريخ كتابتها إلى عام ١١٠٠ هـ. (١٦٨٨ م.)[1].

وصيغت هذه المخطوطة كرسالة بدأها بقوله: «قال علامة العالم نصير الملة والدين رسم المولى العالم الفاضل مؤيد الدولة والدين قدوة المهندسين أن أكتبه شيئًا أفاده الحكماء المحققون فى بقاء النفس الإنسانية بعد بوار البدن فلم أجد بدًّا من امتثال مرسومه، وإن كنت قليل البضاعة فى هذه الصناعة. وكان ما يفرض من غيائب العلوم فهو فى جنب علومه الدقيقة قليل القدر، صغير البنيان، وبدأت بمقدمات يبتنى عليها المطلوب، وسألت من الله العصمة فى المقال، والتوفيق بصوالح الأعمال، إنه ملهم العقل، وولى الخير من المبدأ وإليه المعاد.

وجاءت مباحث الرسالة فى ثلاثة أمور، أوّلها إثبات تجرد النفس الناطقة، والثانى إثبات أن مبدع النفس هو الله تعالى، والثالث إثبات بقائها بعد بوار الجسد.. والذى يهمنا هنا هو الأمر الثالث الذى يقول فيه:

---

(١) جاء ذكر هذه الرسالة فى كتاب «فوات الوفيات» لمحمد بن شاكر بن أحمد الكتبى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ. وفى كتاب «كنج دانش» وهى كلمة فارسية بمعنى «مخزن العرفان»، وهو يبحث عن البلدان والتواريخ وتراجم مشاهير الرجال، لمحمد حسن خان الأديب الفارسى الشهير بالحكيم. وفى كتاب «آثار الشيعة الإمامية» للعالم الجليل عبد العزيز الجواهرى.

« . . وأيضًا لا يجوز أن يكون لبدن ولا مزاجه شرطا فى بقاء لنفس، لأن النفس هى احافظة واسبقية للبدن ومزاجه بتدبيرها وإيراد الغذاء عليه بدلاً عما يتحلل منه، فإن كان البدن أو المزاج شرطا فى بقاء النفس لزم الدور». . أى يتوقف بقاء النفس على وجود البدن. إذ هو شرط فى بقائها على الغرض ويتوقف بقاء البدن على وجود النفس لأنها هى الحافظة والمبقية له بتدبير الغذاء عليه بدلاً عما يتحلل.

ثم يقول: «ولما فاصت النفس عن مبدعها على البدن أو تعلقت به على أى المذهبين، كان م يبق للبدن ولا لشىء مما يتعلق به تأثير علّيته ولا تأثير شرطيته فى وجود انفس ولا فى بقائها فلاتضرّ النفس فقدان البدن أو قطع العلاقة بينه وبينها بوجه وتبقى النفس موجودة دائمة بدوام مبدعها ومفيضها لوجوب وجود المعلول مع وجود علته واستحالة انفكاكه عنه وهو المطلوب».

ويقصد الفيلسوف الطوسى بقوله هذا، أن مفيض النفس للبدن وعلتها الموجدة هو الله تعالى عزّ شأنه، فعلى المذهبين، أى مذهب «أفلاطون» ومذهب «أرسطو» لم يبق للبدن ولا لشىء مما يتعلق به تأثير عليته وتأثير شرطيته لأن مفيضها هو الله تعالى، وكذلك لا يبقى له تأثير فى بقاء النفس أيضًا لأنه م كن علة فى وجود النفس فليس علة فى بقائها فلا يضر النفس فقدان البدن وقطع العلاقة بينه وبينها

ولما كانت علتها علة سرمدية فالمعلول أيضًا يبقى ببقاء علتها على الدوام لأن وجود العلة يستلزم وجود معلوله ويستحيل انفكاكه عنها.

ثم يقول فيلسوفنا الطوسى: «وبوجه آخر نقول كل أمر يكون فى شىء من الأشياء بالقوة ثم خرج إلى الفعل وجب أن يكون ذلك الشىء الذى كان فيه ذلك الأمر باقيا عند خروج ذلك الأمر إلى الفعل حتى يصح الخروج من القوّة إلى الفعل. وإن انعدم ذلك الشىء عند خروج ذلك الأمر من القوة إلى الفعل لما كان الأمر الذى كان فيه بالقوة خارجًا منه إلى الفعل كما فى نطفة الإنسان. فإن الإنسانية فى مادتها بالقوة، ولابد من وجود تلك المادة عند صيرورتها إنسانًا بالفعل وإلا لما كان ذلك الإنسان من تلك النطفة. وصورة النطفة لما كانت عند خروج الصورة الإنسانية إلى الفعل غير باقية لم تكن الصورة الإنسانية فى تلك الصورة بالقوّة، بل امتنع جمعها فى تلك المادة. ولذلك لما خرجت هذه إلى الفعل فى مادتها فنيت تلك فيها. وإذا تقررت هذه المقدمة فنقول لو جاز الفناء لكان الفناء فيها حال الوجود بالقوة وإذا خرج الفعل وجب أن تكون النفس مع فنائها موجودة فهذا خلف. إذن ثبت أنه لا يجوز عليها الفناء».

خصص الفيلسوف بهذا الكلام الفناء عى موجود ممكن حال فى محل كالصور والأعراض ويكون المحل مستعدا للبقاء مع فناء ذلك الحال وزواله عنه كصورة النطفة الفانية مع بقاء مادة النطفة. والفناء على رأيه يختصّ فى الموجودات بما يحلّ فى محل الصورة والأعراض

وما يركب منهما كالجسم بوصف الجسمية الفانى بفناء صورته التى هى احد جزأيه، وبين ثانى الاعتراضين بقوله: «فإن قيل لو كانت النفس مركبة من حال ومحل كالجسم لجاز عليها العدم»، ودفعه لقوله: «قلنا لا يجوز العدم على الجزء الذى هو المحل ونحن نعنى بالنفس ذلك الجزء دون ما يحل فيه، فإن النفس كما تقرر شىء يرتسم فيها كثير من الصور بحيث يحدث فيها ويزول عنها وهى لا تنعدم بانعدامها. وإذا ثبت أن النفس ليست بصورة للبدن ولا بعرض حالٍّ فيه، ولا بمركبة من حال ومحل ثبت أن الفناء لا يجوز عليها».

ومعنى هذا بإيجاز أن النفس لو كانت مركبة من حال ومحل كالجسم المركب من الصورة الحالة والمادة التى حلت الصورة فيها وقوام الجسم بهذين الجزّين لتوجه الاعتراض. ولكن النفس ليست مركبة منها بحيث يكون قوامها بهما كالجسم وذلك أننا نرى أن كثيرًا من الصور يحدث فيها ويزول عنها فهى مع ذلك الحدوث والزوال باقية ثابتة. فالنفس هى المحل الذى يحدث فيها الصور ويزول عنها. وإذا ثبت أن النفس ليست بصورة للبدن ولا بعرض حال فيه ولا بمركبة من حال ومحل فالفناء لا يجوز عليها.

ويختم الفيلسوف رسالته بقوله: «هذا ما حضرنى فى الوقت مع اشتغال القلب مما أستند به من كلام العلماء فى هذا الباب والله أعلم بحقيقة الحال».

ومن قبل هؤلاء الذين ذكرناهم من أمثال ابن سينا والبطليوسى وابن العبرى والسهروردى والغزالى والطوسى وغيرهم ممن لم نذكر، كان هناك الشيخ اليونانى «أفلوطين» الذى كان له رأى هو الآخر يعتدّ به فقد اهتم بهذا الموضوع اهتمامًا كبيرًا وأفرد له فصلاً قائمًا بذاته فى الميمر التاسع من «كتاب أثولوجيا» بعنوان «فى النفس الناطقة وأنها لا تموت»، يقول فيه بعد البسملة

«إنّا نريد أن نعلم: هل الإنسان كله واقع تحت الفساد والفناء؟ أم بعضه يبيد ويفنى ويفسد، وبعضه يبقى ويدوم؟ وهذا البعض، هو ما هو؟ فمن أراد أن يعلم ذلك علمًا صحيحًا فليفحص فحصًا طبيعيًا كما نحن واصفون. فنقول: إن الإنسان ليس هو شيئًا مبسوطًا ساذجًا، لكنه مركب من نفس وجسم، والنفس غيرالجسم، والجسم إما أن يكون بمنزلة آلة النفس، وإما أن يكون متصلاً بها بنوع آخر من الأنواع. غير أنه بأى نوع الاتصال كان، فإنه ينقسم الإنسان بقسمين وهما نفس وجسم. ولكل واحد من هذين القسمين طبيعة غير طبيعة الآخر، والجسم مركب غير مبسوط، والمركب قد ينحلّ ويتفرق إلى الأشياء التى تركب منها، فالجسم إذن يتفرق وينحلّ ولا يبقى. وقد يشهد العيان بذلك؛ وذلك لأن البصر يرى كيف يذبل وينحلّ ويفسد بأنواع كثيرة من الفساد، ويرى كيف يُفسد بعضُ الأجسام بعضًا، وكيف يستحيل بعضها إلى بعض، وكيف يتغير بعضها إلى بعض، ولا سيما إذا لم تكن النفس الشريفة الكريمة الحية

موجودة فيها، أعنى فى الأجسام. وذلك أنه إذا بقى الجرم وحيدًا وليست فيه النفس الشريفة لم يقدر على البقاء ولا أن يكون واحدًا متصلًا لأنه ينحلّ ويتفرق فى الصورة والهيولى، وإنما يتفرق فيهما لأنه منهما مركب. وإنما ينحلّ الجسم ويتفرق ولا يبقى متصلًا على حالة واحدة لمفارقة النفس؛ لأن النفس هى التى ركبته من الهيولى والصورة، فإذا فارقته لم لبث أن يتفرق إلى الأشياء التى رُكب منها.

«ونقول إن الأجساد أجزاء بأنها أجسام. فمن أجل ذلك انقسمت وتركبت وتجزأت أجزاء صغارًا. وهذا نوع من أنواع فسادها. فإن كان هذا على ما وصفنا، وكان الجسم جزءًا من أجزاء الإنسان، وكان واقعًا تحت الفساد. فلا محالة أن الإنسان كلّه بأسره ليس بواقع تحت الفساد، بل إنما يقع تحت الفساد جزء من أجزائه فقط. والجزء الواقع تحت الفساد هو الآلة وإنما صارت الآلة تفسد ولا تبقى، لأن الآلة إنما تُراد لحاجة ما، والحاجة إنما تكون زمانًا، وفى طبيعة الآلة أن تفسد ولا تبقى، وذلك لأن صاحب الحاجة الذى يستعمل الآلة لحاجة ما إذا فرغ من حاجته التى من أجلها استعمل الآلة رفض الآلة وتركها. فإذا رفضها ولم يتعهدها فسدت ولم تبق على حالتها.

«فأما النفس فإنها ثابتة قائمة على حالة واحدة لا تفسد ولا تبيد، وبها صار الإنسان هو ما هو، وهى الشىء الحق الذى لا كذب فيه إذا أضيف إلى الجسم. وحاجة النفس إلى الجسم

كحاجة الجسم إلى الهيولى، وكحاجة الصانع إلى الآلات. فالإنسان إذن هو النفس، لأنه بالنفس يكون هو ما هو، وبها صار ثابتًا دائمًا، وبالجسم صار فانيا فاسدًا، وذلك لأن كل جرم مركب، وكل مركب واقع تحت الانحلال والفساد، فكل جسم إذن منحلّ واقع تحت الفساد.

«فإن قال قائل: فإن النفس واقعة تحت الفساد أيضًا لأنها جسم من الأجسام، غير أنها جسم لطيف رقيق - قلنا له: ينبغي أن نفحص عن ذلك ونعلم: هل النفس جسم، أم ليست بجسم؟ فنقول: إن كانت النفس جسمًا من الأجسام فلا محالة أنها تتفرق وتنحل. فإلى أي الأشياء تنحل؟ - فإنه كان ذلك مما ينبغي أن نعمه، فنقول: إن كانت الحياة حاصرة للنفس اضطرارًا لا تفارقها ولا تباينها، وكانت النفس جسمًا، فلا محالة أن لكل جسم من الأجسام حياة لا تفارقه بأن تكون دائمًا معه. فإن كان هكذا رجعنا فقلنا: إن كانت النفس جسمًا، وكان الجسم مركبًا، فإنه لا محالة من أن تكون النفس مركبة، إما من جرمين، وإما من أجرام كثيرة، وأن يكون لكل جرم منها حياة غريزية لا تفارقة، وإمّا أن تكون لبعضها حياة غريزية ولا حياة لبعضها، وإما أن لا تكون لشيء منها حياة غريزية ألبتة. وإن كان لجسم منها حياة غريزية فذلك الجسم هو النفس حقًا. فسأل عن ذلك الجسم أيضًا فنقول. هل هو مركب من أجسام كثيرة؟ ونَصِفُه بالصفة التي وصفناه به

آنفًا، وهكذا إلى ما لا نهاية، وما لا نهاية له فليس بمعلوم مفهوم.

إلى أن يقول :

« إن هذا العالم لا يجرى بالبخت والاتفاق، بل إنما يجرى بكلمة نفسانية عقلية بغاية الحزم والتدبير. فإن كان هذا هكذا، قلنا إن النفس العقلية هى القيّمة على هذا لعالم. والأشياء الجرمية إنما هى بمنزلة جزء لها، وهى التى تلزم هذا العالم بالهيئة التى عليه، كما تلزم أجرام الحيوان فإنها ما دامت النفس فيها فهى باقية ثابتة، فإذا فارقتها لم تثبت ولم تبق بل تفسد وتهلك. فكذلك العالم كله، مادامت النفس فيه، باق دائم. فإن فارقته، هلك ولم يبق على حالة واحدة. وقد شهد لنا على ذلك الجرميون؛ لأن الحق يضطرهم إلى الإقرار بذلك وتضطرهم الأشياء إلى أن يعلموا أنه ينبغى أن يكون، قبل الأجرام كلها، المبسوطة والمركبة، شىء آخر هو النفس. غير أنهم خالفوا الحق بأن جعلوا النفس ريحًا روحانية ونارًا روحانية، وإنما وصفوا النفس بهذه الصفة لأنهم رأوا أنه ليس يمكن أن تكون القوّة الشريفة الكريمة دون النار أو الريح، وظنوا أنه لا بدّ للنفس من أن يكون لها مكان تثبت فيه. فلما ظنوا ذلك جعلوا مكانها الريح والنار لأنهما أرق وألطف من سائر الأجرام. وقد كان من الواجب أن يقولوا أن الأجرام هى التى تحرص على طلب المكان فيها وتثبت فى قوى النفس، والنفسُ هى مكان الأجرام، وفيها ثباتها ودوامها،

لا الأجرام مكان النفس؛ لأن النفس علّة والجرم معلول، والعلّة قد تكتفى بنفسها ولا تحتاج فى ثباتها وقوامها إلى المعلول، والمعلول يحتاج إلى العلة لأنه لاثبات له ولا قوام إلّا به - أى بالعلة.

«ونقول: إنهم إذا سئلوا عن النفس فقالوا إنها جرم، ثم وردت عليهم المسائل التى لا ملجأ لهم منها، ولم يقدروا على أن يثبتوا أنها فى الأجرام المعروفة - التجأوا حينئذ إلى الشىء المجهول الذى قد أكثروا فيه القول وكرروه، فاضطروا إلى أن يجعلوها جرمًا غير هذه الأجرام المعروفة، إلّا أنه بزعمهم جرم قوى فعّال وسّموه روحًا. فنردّ عليهم ونقول: إنا قد وجدنا أرواحًا كثيرة لا أنفس لها. فإن كان هذا هكذا، فكيف يمكن أن تكون النفس روحًا من الأرواح لما لا نفس له. فإن قالوا: إن الروح التى فى هيئة ما هى النفس - سألناهم عن هذه الهيئة ما هى، فإنه لا محالة من أن تكون الهيئة هى الروح بعينها، أو أن تكون كيفية فيها. فإن كانت هى الروح لزمهم قولنا الأوّل: إنّا قد نجد أرواحًا ليست بذات النفس وإن كانت الهيئة كيفية الروح كان الروح مركبًا غير مبسوط، فلا يكون بينا وبين الأجرام فرق ألبتة»[1].

* * *

ويقودنا موضوع بقاء النفس بعد انفصال الجسد إلى السؤال عما

(١) انظر كتاب «أفلوطين عند العرب» ص ١٢١ وما بعدها.

إذا كانت النفس تشتاق بعد الموت الى الجسد وتتمنى عودتها إليه فيجيبنا المجريطى على ذلك بحكاية طريفة يسردها لنا قائلاً :

« ذكروا أن بعض لموك زوج ابنه واتخذ لحاشيته دعوة حافلة أسبوعًا لا يعرفون غير الأكل والغناء والفرح والسرور. وكان ابن الملك يجلس فى صدر مجلس وينظر إلى ما فيه الناس من الفرح. فإذا نام أكثر الناس ومضى شطر الليل قام فدخل حجرة الخلوة، فاتفق ليلة أنه سكر وسكرو فمشى فى الدار حتى خرج من بابها وخرج من المدينة إلى الصحراء فم يدر أين هو فرأى ضوءًا من بعد فقصده فإذا باب مردود وضوء داخله فدخله فإذا بقوم نيام مطروحين كل واحد ملتحف بإزار فظن أنها حجرة العروس والنيام جواريها فجعل يناديهم فم يجبه منهم أحد فظن أن ذلك لشدة سكرهم فالتمس العروس بينهم حتى وقعت يده على واحدة أطراهن ثوبًا وأطيبهن ريحًا فظن بها عروسه فاضطجع معها فجعل ليلته يقرصها ويمتص لسانها وينفذ ولا يرى لذة أطيب مما هو فيه. فلما أصبح وأفاق من سكره فتح عينيه فإذا هو فى ناووس[1] خراب وإذا أولئك النيام جيف الموتى وإذا هو بجانب عجوز ماتت حديثًا وعليها كفن جديد محيط مبخر وما صديد سائل منها وقد تلوث بدنه وثيابه. فهاله ذلك وقام مرعوبًا متقززًا وخرج يجرى حتى نزل نهرًا فغسل

(١) الناووس : القبر (لمس)

م عليه رومى ثيابه وليس ثيابًا نظيفة. فهل ترى بعد ما نجاه الله من مبيته تلك الليلة فى الناووس يشتاق إلى معاودة العجوز المنتنة مرة أخرى؟

هكذا حال النفوس بعد مفارقتها للأجسام وصعودها إلى ملكوت السماء..[1].

(١) عن كتاب «قصيدة النفس لابن سينا شرح العلامة زين الدين عبد الرءوف المناوى» ص ٩٤.